أنت المليك عليهم وهم العبيد إلى القيامة

لم يشعر ربيعة بن عمرو فى يوم من الأيام بضيق أشد، ولا حيرة أعظم مما شعر به فى ذلك الصباح. كانت الحرارة منذ طلوع الشمس تلفح الوجوه لا يخفّف منها هبوب نسيم، ولا يفل من حدتها ظل سحابه.

وكانت الحوادث تتوالى فى سرعة عجيبة، كأن الأقدار قد اعتزمت أمرًا فهى تنفذه خطوة بعد أخرى جريًا على سنن، وسيرًا على خطة.

جلس فى خيمته وحده يفكّر فى كل ما مضى به فى تلك السنوات الغابرة. لقد وَثق حجر به واعتمد عليه، فحاول أن يمهد له الوعر ويقوم المعوَجّ، لم يترك حيلة لم يلجأ إليها، ولم يدع نصيحة لم يخلص فى تأدية حقها. حاول أن يحفظ امرأ القيس وأن يسمو به إلى ذروة المجد التى كان ذكاؤه وشجاعته يؤهلانه لها فخاب أمله، ورآه يطرد من منازل أبيه ليتشرد، ويُفنى نبوغه مع الصعاليك فى الشراب والمجون. ثم حاول أن يسترضى بنى أسد عن حكم ملكهم، فاتُّهِمَ وساءت به الظنون؛ وحاول أن يحمل مولاه على الاعتدال والرفق فى حكمه، ولكن حُجرًا كان لا يرضى من رعيته بغير الخضوع الكامل فى كل ما أراد؛ وقد حتّمت عليه حروب أبيه

الملك الحارس أن يشتد فى مطالبتهم بالأموال، وأن يأخذ منهم فوق ذلك ضريبة من الأنفس يبعث بها إلى الحرب التى كانت بين أبيه وبين منافسه العنيف المنذر بن ماء السماء.

وانتهى الأمر بعد كل هذا إلى أن ثار بنو أسد به، وثَار هو بهم، فضربوا أعوانه وضرّجوهم بالدماء، فانتقم منهم أشد انتقام، يضرب سَراتهم بالعصا، ويقتل شيوخهم أشنع قتلة فى السجن، وأصبح بينه وبين رعيته ما لا يمكن أن يستقرّ عليه مَلك، ولا يمكن أن تعود معه مودَّة. وكانت رسل المنذر بن ماء السماء لا تنفك تفد إلى بنى أسد تحرضهم على العصيان، وتمنيهم وتعدهم أحسن الجزاء، إذا هم وثبوا بصاحبهم، فكانت الأمور كل يوم تصير من حالٍ إلى حال أسوأ، ومن شدة إلى شدة أضيق. كل هذا وربيعة يكدح عقله وقلبه فى سبيل التماس الحيلة لإصلاح الأمور، فلا يجدها تزداد إلا فسادًا.

جلس فى خيمته والحزن يملأ قلبه واليأس يساوره من كل جانب، وفيما هو كذلك أتى إليه رسول الملك حجر يدعوه إليه، فنظر إلى الرسول وكان رجلًا من قبيلة كندة، من جنود الملك الذين كانوا لا يرون فى العرب أحدًا يستحق المحاسنة إلا أن يكون كنديًا، فخاطبه الرجل فى جفاء قائلا: «قم إلى الملك سريعًا».

ثم مضى عنه وهو يخرق الرمال بزجّ رمحه فى هيئة التحدى والاحتقار.

لم يجـب ربيعة بلفظ، بل قام وهو يتنفّس مهمومًا، وسـار فى آثـار الرجل ينظر إليه آسـفًا أن يكون الأمر قـد انتهى بمليكه إلى أن يقيم سـلطانه على بطـش هؤلاء الجفاة، حتى بلـغ خيمة الملك فدخل ولا يزال الهمّ يملأ جوانحه.

وكان حجـر فى ذلك اليوم على غير مـا كان عليه بالأمس. كان بالأمـس ثائرًا غاضبًـا مخيفًا، وأما فى ذلك اليـوم فقد كان مهموم النفس كئيبًـا خائرًا. وما وقعت عليه عـين ربيعة حتى أدرك أنه لا بد قد أرسل إليه فى أمر جلل، وأنه لا بد قد وقعت به كارثة من تلـك الكوارث المتعاقبة التى اعتادت السـنوات الأخيرة أن تطالعه بها بين حين وحين.

دخـل ربيعة صامتًا، وحيّـا فى هدوءٍ قائلًا: «عـم صباحًا أيها الملك الهمام».

فقال حجر حزينًا: «عمت صباحًا يا أبا نعيم».

وكان الملـك لا ينـادى ربيعة بهـذه الكنية إلا فى أشـد أوقاته وأعظمهـا كربًا، فقد كان يحسّ عند ذلـك أن فى هذا الرجل وحده أمله الفرد فى النجاة.

وأفسـح حجر له مجلسًـا إلى جانبه، وأشـار إليـه أن يجلس، فذهب ربيعـة وقعد تجاهه وأطرق فى انتظار مـا يقوله له مولاه. وساد الصمت لحظةً ثم قطعه حجر قائلا بصوتٍ خافت: «ألم تسمع بما كان؟».

فنظر ربيعة إليه فى اهتمام وقال: «لعله يكون خيرًا».
فقال حجر فى بطء: «لقد أتى إلى الساعة رسول من الملك الحارث».
فأسرع ربيعة قائلا بلهفة: «لعله أتى بخير!».
فقال حجر بحزن شديد: «بل أتى بمصاب جلل ورزء عظيم».
فصمت ربيعة وجلًا من سماع النبأ، ولم يسأل عن ذلك المصاب.
وبعد سكوت لحظة استمر حجر فقال فى حزن عميق مكتوم: «ثمانية وأربعون من بنى آكل المُرار، ثمانية وأربعون من أبناء الملوك يساقون إلى الثُّويَّة عند الحيرة فى ديار بنى مرين، يسوقهم بنو تغلب الغادرون إلى المنذر ليقتلهم! ذلك المنذر الذى كان شريدًا يتنقل فى القبائل خائفًا من أبى، يتلمّس النجاة ويطلب الأمن فى جوار القبائل!».
وصمت لحظة ثم تنفس نفسًا عميقًا وقال وقد علا صوته واحمر وجهه: «ويلٌ لتغلب! لقد غَدَرَتْ ونقضت عهدها وساعدت المنذر على الملك الذى كانت تدين له، والذى كان يغمرها بإحسانه وبفيض نعمه. غدروا بملكهم وانتهبوا أمواله وهجائنه، وأسروا أبناءه وأبناء إخوته. ثمانية وأربعون أميرًا من بنى آكل المرار يلاقون حتفهم على يد الخونة الغادرين! ثم تُرمى جثثهم للطيور والوحوش تنهشها وتقطعها! ويل للمنذر! وويل لتغلب!».
وصمت حجر بعد ذلك وقد غلبه الغضب والحزن، ولم يجد ربيعة سبيلًا إلى معاودة الحديث معه، ولم يجد من القول ما يقوم بتعزيته فى مصابه، فسكت فى وجوم، وأطرق يفكر فى ذلك

الخطـب الجديد. وكان حائـرًا فى فهم قول حجـر فلم يدرك منه إن كان الحـارث قتـل فيمن قتل فى وقعة الثويّـة، أو كان لا يزال حيًّـا بعد أسـر أهله. وأدرك حجر أنه لم يخبر صاحب سـره بكل ما بلغه من أنباء المصاب، فأخذ بعد صمته يحدثه بما بلغه، فأخبره أن الحارث نجا من عدوه فى عدد قليل، فلجأ إلى بنى كلب، وهناك أصابه مرض شـديد فأرسل إليه ذلك الرسول الذى وفد إليه ليخبره بتلك القصة المحزنة وليطلب منه أن يذهب إليه ليراه قبل موته.

فأدهش هذا القول ربيعة فقال فى دفعة: «تذهب إليه؟».

فنظر إليه حجر وقد أدرك سر دفعته ثم قال: «نعم هذا ما جاءنى من أبى فماذا ترى؟».

فقال ربيعة فى ثبات وثقة: «لا ينبغى لك أن تذهب فإنك تعرف أن من بقى هنا من غطفان وقيس، ليسـوا أقل تبرمًا من بنى أسـد، وإذا بَعُدتْ عنهم لم تأمن وثوبهم فى غيابك».

فقـال حجر: «ولكنى أتركك هنا فى جنـود كنده ومن معك من الصـنائع الذين ينصـروننـا من قـبائل العرب».

فهز ربيعة رأسـه شـاكًّا فـى حكمة هذا الـرأى، ولكنه صمت ولم يجب.

فقال حجر: «أراك تخالفنى!».

فقال ربيعة: « لقد أرسلنا مع بنى أسد نصف جنودنا لكى نطمئن إلى حراستهم حتى يبلغوا تهامة، ولم يبق معنا هنا من يكفى للقسمة بين ذاهب معك لحراستك، ومقيم فى الديار لحراسة ملكك».

فتردّد حجر حينًا وجعل يفكر، ثم نظر إلى ربيعة وهمَّ أن يفضى إليه برأيه لولا أن دخل عليه رجل من جنوده رافعًا صوته فى شىء من الوقاحة يقول: «هذا الرجل لا يستقر على قرار، ولا حيلة لنا فيه إلا بقتله».

فنظر حجر إلى البدوى الذى دخل يخاطبه بهذه الجرأة وعبس عبسة خفيفة ثم ملك نفسه وقال: «من تعنى يا أخا كندة؟».

فقال البدوى: «ذلك الأسدى القعقاع عبيد بن الأبرص لا يزال يعوى يريد أن يراك، وينشد الأشعار ولا يمتنع عن البكاء ليلًا ونهارًا».

فنظر إليه حجر وقد ظهر عليه الحقد والغضب، وكاد يلقى إليه أمره، لولا أن بادر ربيعة فقال بصوتٍ فيه تلطف وخشوع: «مولاى!».

ومد يديه نحوه فى ضراعة.

فأمسك حجر عن إلقاء أمره، وصمت لحظة محاولا أن يهدئ من غيظه، ثم قال كأنه يخاطب نفسه: «لوددت أنى أراه يتمزق عضوًا فعضوًا».

فمال ربيعة نحوه وقال بصوت خافت: «دعه لى الآن يا مولاى».

فسكن غضب حجر قليلا، وكأنه أحس فى ضراعة ربيعة إليه أن له قصدًا خفيًّا، ثم التفت إلى البدوى الواقف أمامه ينظر إلى ربيعة باحتقار ظاهر، وقال له: «دعه الآن يا بن أخى».

فرفع البدوى رأسه ونظر إلى ربيعة مرة أخرى فى كراهة وخرج وهو يخبط الأرض برمحه خبطًا عنيفًا.

ولما صار ربيعة وحده مع الملك أقبل عليه قائلاً: «أرى فرصةً تسنح لنا يا مولاى».

فقال حجر باهتمام: «وما تلك الفرصة؟».

فقال ربيعة وقوله يكاد يكون همسًا، وهو ينظر حوله خوف أن يسمع أحد قوله: «إذا كان لا بد لك من المسير إلى الملك الحارث فلا مناص من وجود كل جندك ها هنا».

فرفع حجر حاجبيه متعجبًا وقال: «ولكنك تعلم أننا لا نقدر أن ندع بنى أسد يمرحون وحدهم فى تهامة لا بد من وجود جندنا معهم يحرسونهم».

فقال ربيعة جادًا: «هذا ما أردت أن أتحدث فيه. أرى أن إبعادهم من هنا فيه خطر شديد علينا. وأولى بنا أن نجعلهم ها هنا تحت سمعنا وبصرنا».

فقال حجر فى قسوة: «أوَ أراهم صباحًا ومساء؟ أأصبحهم وأمسيهم بغير القتل والضرب والعذاب؟».

فقال ربيعة: «أبَيْت اللعن! لست فى علوٍّ مكانتك بأهلٍ لهذا الحقد. فالعفو أقرب إلى شيم الملوك».

فهدأ حجر وصمت لحظة ثم قال: «ولكن كيف السبيل؟ لقد قضى الأمر، وسار القوم عنا».

فأسرع ربيعة قائلًا: «تردهم. ترسل فى أثرهم فتسترجعهم».

فقال حجر فى شىء من الغضب: «وأرتد ناكلا عن أمرى؟ إن هذا لا ينبغى لمثلى».

فقـال ربيعة بإصـرار: «ولكنك تكون متفضـلا؛ إن هذا الرجل الشـاعر الذى كان يغاضبك بالأمس يريد أن يراك. ولا أظنه إذا جاء إليك إلا طالبًا عفوك متذللا خاضعًا. فإذا أنت عفوت عنه وعن قومه بعـد ذلك كنت متكرمًـا، وأمكنك أن تعيد القوم إلى هنا وتسـتعيد معهم جنودك، ولن يزيدك ذلك العفو إلا مهابة فى القلوب، ولعله يكون سـببًا فى استصفاء النفوس بعد كدرها، واستقرار الأمور بعد تزلزلها. هذه هى الفرصة التى رأيتها تسنح لنا».

فأطـرق حجـر يفكر مليًّا فى قـول ربيعة، ثم رفع رأسـه بعد قليل وقال مستسـلمًا: «قم إلى ذلك الشاعر وأحضره وافعل ما بدا لك يا أبا نعيم».

فأسـرع ربيعة خارجًا، وجلس حجر وحـده مطرقًا يفكر فيما هـو صانع، وكانت أفكاره لا تسـتقر، وهواجسـه لا تنقطع، حتى عاد إليه ربيعة يقود عبيد بن الأبرص يرسف فى قيده، وقد امتقع وجهه، وظهرت عليه أثار عصىّ حراسه الكنديين ولكماتهم.

وتحامل الشاعر حتى وقف أمام حجر، وهو يهتز من الضعف، وأخذ ينشد:

يا عـين فابـكى ما بنـى ... أسـد فهـم أهـل النـدامه
أهـل القبـاب الحمر والنَّـ ... ـعَـم المـؤبَّـل والمُـدامـه
وذوى الجيـاد الخرد والـ ... أسَـل المثـقَّـفـة المقـامه
حِـلا أبيـت اللعـن حلا! ... إن فيمـا قلـت آمـه

فــى كـــل واد بـيــــن يثرب فالقصور إلى اليمامه
تطـريب عـــان أو صـــيا ح محـرَّق أو صـوت هـامه
ومنعتهـم نجـــدًا فقـــد حلـوا علـى وجـل تهـامه
بـرمـت بنــو أســد كمــا برمت ببيضتها الحمـامه
جعلـت لهـا عـودين مـن نشم وآخــر مـن ثُمــامه
إمـا تـركـت تـركـت عف وًا أو قتلــت فـلا مــلامـه
أنــت المـليـك عليهــــم وهـم العبيــد إلى القــيامه
ذلــوا لســوطـك مثلمــا ذل الأشيقــر ذو الخـزامه

وكان حجر فى أثناء إنشـــاد عبيد مطرقًا، يفكر فيما هو صانع، وتنازعتـــه الآراء، وتجاذبته الميــول، ولم يدر بماذا يجيب، فرفع بصره إلى ربيعة كالمستنجد، فوقف ربيعة وبسط إليه يديه متذللا، وقال لـــه: «هبنى هؤلاء، فقــد بلغت منهم مــا لا رجعة بعده إلى شق طاعة».

فذهــب عن حجر التردد ونهض من مجلســه ذاهبًا نحو عبيد، فقبـض على ذراعه وهزها هزًّا عنيفًـا، وقال له فى غضب: «أليس أنت المتكلم بهجوى، الساعى فى الوثوب بى؟».

فقال عبيد منكسرًا: «لقد كان جهلا وحمقًا».

فقـال حجر وهو يهــزه بعنف مرة أخرى: «ألســت أنت الوقح الذى تقول:

فانظر إلى ظل مُلك أنت تاركه هل نُرْسِينَّ أراخيه بأوتـاد؟»

فأجاب عبيد فى خضوع: «عفوًا أبيت اللعن، لولا الذنب ما كان العفو».

فقال حجر وقد بدت على وجهه أمارات الارتياح: «أفٍّ لهؤلاء الشعراء! لهممت أن أقطع لسان كل من قال شعرًا».

ثم نظر إلى عبيد وقال: «اذهب ثكلتك أمك، فقد حقنت دمك ودماء قومك».

فرفع عبيد يديه، وقال فى لهفة وفرح: «دمت للمكرمات!».

ونظر حوله فزعًا إلى ربيعة مرة وإلى الملك مرة، وقد غصَّ بريقه فلم يقوعلى الكلام، فنادى حجر بعض الأعراب من الجند الذين كانوا وقوفًا عند بابه، فدخل اثنان منهم مسرعين فى سرور يحسبان أن الملك سيأمرهما بقتل ذلك الشاعر الكريه؛ ولكن حجرًا قال لهما مشيرًا إلى عبيد فى نغمة احتقار ظاهرة: «اذهبا به فأطلقاه».

فظهر على وجهيهما تجهم خيبة الأمل، ودفعا الشاعر أمامهما وخرجا به من الخيمة، وهو يحجل فى قيده متلفتًا إلى يمينه ويساره كأنه غير مؤمن بالنجاة. وبقى حجر بعد خروجه حينًا وهو مطرق، ثم قال ربيعة فى صوت خافت: «أحس كأننى أصعِّد فى وحل يا ربيعة».

فأجاب ربيعة مطمئنًّا: «لا بل قد عاد الأمر إلى أيدينا بعد أن كاد يتفلَّت منها».

فقال حجر وهو يتنفس: «هيه! ماذا نملك لأنفسنا من قضاء الآلهة؟ أرسل إلى بنى أسد كما شئت فردهم إلى هنا. وليكن ما يكون».

فخـــرج ربيعة لينفذ أمر مولاه، وقلبه يكـــذب ما كان يقوله من ألفاظ الأمل والثقة. ثم ســـار فى سبيله إلى بيته ليعد بعض هجائنه الســـريعة لتحمل رسوله إلى بنى أسد. ولكنه ما كاد يخطو خطوات قليلة حتى وقف مشـــدوهًا كأنه رأى شـــبحًا مخيفًـــا، وتردد ونظر إلى ورائـــه، كأنـــه يهم بالعودة إلى الملك ليســـأله أن يعود فى أمره، فقد هبط عند ذلك غراب مســـرعًا فى طيره كأنـــه الصقر، واعترض سبيله آتيًا من يمينه إلى شماله وهو ينعب نعيبًا مفزعًا.

وقف حينًـــا فى حيرة لا يدرى أيمضى فى ســـيره بعد اعتراض هذا الطائر المشـــئوم ســـبيله أم يعود أدراجه طاعـــة لنذير الآلهة؟ واضطربت فى رأسه الخواطر سراعًا، وامتلأ قلبه فزعًا، ولكنه رأى أنه لم يبق له إلا المضى فى ســـبيله، فقال فى نفســـه وهو بين الفزع والضيق: «هذا نذير الآلهة! ولكن ما الحيلة فى مشيئتها؟».

ثم مضى نحو بيته بقلب ثقيل.

وبقـــى حجر فـــى خيمته بعد ذهاب ربيعـــة، وجعل يفكر فيما انتهى إليه رأيه، ويقلب وجوهه، فســـاعة يطمئن، وســـاعة يقلق، ثم هز رأسه مستسلمًا وقال: «دع الأيام تجرى فى مجراها، ولننتظر ما يأتى به الغد إذا أتى».

ثم اضطجع على وســـادة ووضع يده تحت رأسه وذهب مع فكره يضرب فى الآفاق.

فى مساء ذلك اليوم كان حجر يسير فى ركب عظيم من جنده ميممًا حدود العراق تلبية لنداء أبيه المريض الحارث بن عمرو، والمقيم فى بنى كلب، بعد أن هرب من عدوه المنتصر المنذر بن ماء السماء.

ولما أقبل الليل وطلع البدر، وهدأ حر الهواء وبدأ النسيم يهب من الشمال حلوًا باردًا، عاد الأمل إلى قلبه، فجعل يملأ صدره من الهواء الصافى، وينظر إلى صفحة السماء ويقلب نظره مرتاحًا بين نجومها المضيئة، وخيل إليه أن متاعبه قد زالت، وأن أملا جديدًا يطالعه، وأنه سوف يعاود صفاء الزمان ويسترجع الأمن والاطمئنان، وأنه سيجد أباه قويًا معافى، فيهبط معه على أعدائه بعد أن يجمع القبائل ويؤلبها ويحشدها، وأن انتقامه من عدوه سيكون عظيمًا يدق الأعناق.

* * *